مجلة كليّة

الدعوة الإسلامية

العدد الحادي عشر مجلة اسلامية . ثقافية . تصدر سنويًا

1423 من ميلاد الرسول ﷺ الموافق 1994 ميلادية

الوجود العربي في شرق إفريقيا

الدكتور أمين الطيبي
جامعة اكسفورد - بريطانيا

تمهيد:

كان لعرب سواحل جنوب الجزيرة العربية والخليج نشاطٌ تجاريٌ بحريٌ كبير في منطقة المحيط الهندي منذ زمن بعيد، قبل الإسلام؛ فعُرفوا لذلك عند الباحثين بفينيقيي الجنوب. وقد عَرفوا مواسمَ هبوب الرياح الموسمية في المحيط الهندي، فكانوا يُبحرون إلى سواحل الهند صيفاً عند هبوب هذه الرياح من الجنوب الغربي، ويعودون شتاءً عند هبوبها من الشمال الشرقي. وبالنسبة لساحل أفريقيا الشرقي، كانت أسفارُهم إليه شتاءً، وعودتُهم صيفاً، تبعاً لاتجاه هبوب الرياح الموسمية، التي انتقلتْ تسميتُها العربيةُ إلى اللغات الأوروبية Monsoons.

ومنذ ظهور الإسلام حتى القرن السادس عشر، كان هؤلاء العربُ سادةَ الملاحة والتجارة في المحيط الهندي، وأقاموا مستوطنات لهم في «كاليكوت»

على ساحل الهند الغربي (مُكنبار) وفي ملاقة بشبه جزيرة الملايو، ومنهما امتد نشاطُهم التجاريُّ إلى جزر الهند الشرقية والصين، حيث كان للعرب جالية ذات شأن في مدينة كنتون.

كما نشط عربُ جنوب الجزيرة في التجارة عبر البحر الأحمر، وانتقلتْ قبائلُ من اليمن وحضرموت منذ بداية الألف الأولى قبل الميلاد واستقرَّت في مرتفعات الحبشة التي اكتسبتْ اسمها من اسم إحدى هذه القبائل «حَبَشَتْ»، وكان لهؤلاء العرب في أكسوم (بإرتريا حالياً) حضارةٌ مرموقةٌ منذ الألف الأولى قبل الميلاد، بحيث يمكن القولُ بأن تاريخ الحبشة يبدأ في الجزيرة العربية.

وبعد ظهور الإسلام، استمرَّ هذا النشاطُ التجاريُّ البحريُّ مع الحبشة، وزَيْلع على ساحل الصومال الشمالي، وأنشأ العربُ سلسلةً من المستوطنات على ساحل الصومال الشرقي (ساحل البنادر) منذ القرن العاشر الميلادي اتخذوها مراكزَ للتجارة مع الداخل، وللدعوة إلى الإسلام، وأهمُّها مَقْدشو ومَرْكة وبَراوة.

وللحضارمة والعُمانيين دوْرٌ بارز في مجالات التجارة والدعوة إلى الإسلام ونشر الثقافة واللغة العربية على طول ساحل أفريقيا الشرقي ـ من مَقدْشو شمالاً إلى موزمبيق وسُفالة جنوباً، مروراً بممباسة وزنجبار وكلوى على ساحل تنزانيا، وجزر القمر، وسواحل جزيرة مدغشقر (ملقاشي).

إن العلاقات التجارية بين جنوب الجزيرة العربية وساحل شرق أفريقيا، علاقاتٌ قديمة تعود إلى ما قبل الإسلام بقرون، وتشهد بها أطلالُ المراكز والمحطات التجارية التي أقامها العربُ قبل الإسلام على طول ساحل الصومال، وما جاء في كتاب Periplus الذي ألَّفه، في أواخر القرن الأول الميلادي، تاجرٌ يونانيٌ من مصرَ ليكون دليلاً أو مُرشداً للتُّجار في منطقة البحر الأحمر وجنوب الجزيرة العربية وساحل شرق أفريقيا. ففي الكتاب يرد ذكرُ مدينة رَبْطة Rhapta على ساحل شرق أفريقيا، وحاكمها عربيٌ من قبيلة مَعافر اليمنية، وهي تخضع لسيادة مدينة مُخا باليمن، وكانت تتردد عليها المراكب،

وربابنتُها وملاحوها من العرب. ثم تنقطع المصادرُ عن تاريخ ساحل شرقي أفريقيا حتى القرن العاشر الميلادي حينما ألّف المسعوديُّ كتابَ (مروج الذهب)، وفيه تناول بإسهاب تجارةَ العرب في القرن العاشر الميلادي مع ساحل شرق أفريقيا، دون أن يذكر بلداناً أو مدناً.

وعلى ذلك، فإن الوثيقةَ التاريخيةَ ـ (كتاب الزنوج) ـ التي عثر عليها المستشرقُ الإيطاليُّ إنريكو تشيرولّي، ونشرها عام 1957، مصدرٌ مهم للبحث في تاريخ استيطان العرب المبكر في الحبشة وعلى ساحل شرق أفريقيا في الجاهلية وصدر الإسلام. فالمؤلف المجهول الاسم للكتاب جَمع مادته من مصادرَ لم تصلْنا، وهو ينفرد في الحديث عن مستوطناتٍ وهجراتٍ عربية قديمة، وعن وصول الإسلام في خلافة عمر بن الخطاب، وعن إقامة مستوطنات في خلافة هارون الرشيد.

وعند الحديث عن الصراع عام 1865 في أرض كِسْمايو (قرب مصب نهر الجُب Juba) بين الصوماليين ـ ويسمِّيهم السُّمال ـ وبين القالة Gallas ويسمِّيهم الغيلان ـ يؤكد مؤلفُ (كتاب الزنوج) على عروبة الصوماليين إذ يقول: «وأما السُّمال فهم عربٌ من غير خلاف»[1].

رواية صاحب Periplus:

يقول صاحبُ كتاب Periplus ـ من أواخر القرن الأول الميلادي ـ إنه بعد إبحار يومين من ساحل الصومال الجنوبي، يصل المسافرُ إلى «آخر مدينة بها سوق على ساحل أزانيا، وتُعرف المدينة باسم رَبْطة، واسمُها مشتقٌ من اسم القوارب المخُيطة هناك. . . . وبها العاج وصدف السلاحف بكميات وفيرة. وصاحبُ السيادة فيها رئيسٌ مَعافريٌ بموجب حقٍ قديم يجعل المدينة خاضعة «لسيادة المملكة التي أصبحت الأولى في الجزيرة العربية مُخا Mousa. ويُرسل أهلُ مخا سفناً كبيرةً وكثيرةً معظم ربابنتها وملاّحيها من

(1) مؤلف مجهول الاسم. كتاب الزنوج، ص 249. نشر النص العربي أنريكو تشيرولي في كتاب Somalia (I)، روما. 1957.

العرب الذين يَعرفون السكانَ المحليين جيداً، ويتزاوجون معهم، وهم يَعرفون الساحل كلَّه، ويفَهمون لغة القوم. وتأتيها من مخا الرماحُ والفؤوس والخناجر ومختلف أنواع الزجاج. وتُصدَّر من الساحل كمية كبيرة من العاج، وقرون الكركدن، وصدف السلاحف، وقليل من زيت نخيل النارجيل»[2].

إن المستوطناتِ على الساحل إلى خط عرض 10 درجات جنوبي خط الاستواء كانت تخضع لمدينة مخا على ساحل اليمن، وكان التجار العرب يفدون للإقامة والاتجار بسلع شرق أفريقيا التي كان يعاد تصديرها إلى الهند والصين شرقاً، وإلى مصر وعالم البحر المتوسط غرباً. **ومما هو جدير بالملاحظة أنه لا ذِكرَ لتجارة الرقيق**[3]، وهي تجارة نشطت في الفترة الحديثة فقط بعد قدوم البرتغاليين والفرنسيين والإنجليز إلى ساحل شرق أفريقيا وإقبالهم على ابتياع الرقيق للعمل في مستعمراتهم في المناطق الحارة.

والرئيس المعافريُّ الذي يشير إليه صاحب كتاب Periplus ينتمي إلى قبيلة معافر اليمنية الشهيرة، وموطنها إلى الجنوب من مدينة تَعِز إلى مُخا غرباً (قضاء الحجرية بلهاء تعز حالياً). وللمعافر تاريخ عريق منذ ما قبل الإسلام. فاسمُ القبيلة يرد في نقشٍ سبئي عُثر عليه في صِرْواح عن تأسيس مملكة سبأ يعود تاريخه إلى حوالي عام 500 ق. م. وبعد الإسلام، هاجر معظمُ أبناء القبيلة إلى مصرَ والأندلس، وساهموا في نهضة البلدين. فقد عَهد عمرو بن العارص إلى مَعافري بتخطيط مدينة الفسطاط، ومن أشهر المعافريين بالأندلس المنصور محمد بن أبي عامر حاجبُ الأندلس الشهير في أواخر القرن العاشر الميلادي[4].

يتحدث صاحب كتاب Periplus عن التزاوج بين العرب والسكان المحليين، كما يذكر بأن العرب كانوا يفهمون لغةَ القوم. ويمكن أن يعَدَّ ذلك

---

(2) **Perilus of the Erythraean Sea,** New york 1912, PP. 28 - 29.

(3) Bennett N.R., **A History of The Arab State of Zanzibar,** London 1978, P. 4..

(4) ابن حزم الأندلسي، علي: جمهرة أنساب العرب، القاهرة 1962، ص 418. دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الجديدة، بالإنجليزية)، المجلد ليدن 1983، ص 895.

بدايةَ مسيرةٍ أدَّت فيما بعد إلى ظهور اللغة والثقافة السواحلية.

كما يذكر بطليموس في كتاب (الجغرافيا) بأن التجار العرب يتنقلّون بين «العربية السعيدة» (اليمن) ورَبْطة وساحل أزانيا. ويبدو أن أزانيا اسمٌ أطلقه الكتّابُ اليونان على ساحل شرق أفريقيا إلى الجنوب من سواحل الصومال، ومن هذه التسمية جاءت تسمية تنزانيا الحديثة.

كتاب الزنوج:

يشتمل (كتابُ الزنوج) على اقتباسات أخذها المؤلف المجهولُ الاسم من عدة مصادر سابقة له. يقول المؤلف إن المستوطنين العرب الأوائل وصلوا إلى ساحل شرق أفريقيا في زمن كان فيه تَبابِعَةُ اليمن ـ قبل البعثة ـ يسيطرون على التجارة، وهم الذين أسّسوا كلوى وبَتي ولاموه. ثم يتحدث عن هجرة جماعات يمنية إلى الحبشة بعد إخفاق حملة أبرهة الأشرم ضد مكة (عام الفيل)، وعن انتقال ذريتهم بعد الإسلام من الحبشة إلى ساحل شرق أفريقيا.

ويقول المؤلف إن الإسلام وصل إلى شرق أفريقيا في خلافة عمر بن الخطاب سنة 21 هـ/ 642 م. وذكر بعد ذلك وصولَ عربٍ من الشام إلى الساحل سنة 75 هـ/ 695 م في خلافة عبد الملك بن مروان ـ «فوصلوا إلى مَقْدشو وإلى كلوى بقيادة الأمير موسى بن زبير الخثْعمي الذي علّم الناسَ قراءةَ القرآن والدين، وبنى بكلوى حصناً».

ثم وصلتْ حملة عام 149 هـ/ 766 م في عهد الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور لحمل سكان مدن الساحل على أداء الخراج. وأرسل الخليفة هارون الرشيد ولاةً إلى ممباسة والجزيرة الخضراء (بمبا) وكلوى. كما جَهَّزَ ابنه المأمون حملة إلى مدن الساحل لخلافها وامتناعها عن دفع الخراج[5].

إن ما يذكره صاحبُ كتاب Periplus من القرن الأول الميلادي يوحي بأن مستوطناتٍ عربيةً أخرى غير رَبْطة قامتْ على غرارها فيما بعد، ولا يُستبعد أن تكون هذه المواقعُ مأهولةً بمستوطنين عرب من أيام مملكة حمير. وينفرد

(5) كتاب الزنوج، ص 237 ـ 239.

(كتاب الزنوج) بذكرها، كما ينفرد بالقول بأن الإسلام وصل إلى مدن الساحل في خلافة عمر بن الخطاب.

يقول باحثٌ حديث متخصِّص بتاريخ ساحل شرق أفريقيا في العصر الوسيط: «إن كلَّ هذه المصادر توحي بوجود مستوطنات عربية على الساحل منذ القرن الأول الميلادي من أيام ملوك حمير، تَلَتْها مستوطنات أُقيمت بعد ظهور الإسلام في العهدين الأموي والعباسي»[6].

إمارة بني مخزوم بجنوب هضبة الحبشة:

إن أولَ مسلم ورد ذكرُه مهاجراً ومستقراً في الحبشة هو ودُّ بن هشام المخزومي، وكان ذلك في خلافة عمر بن الخطاب.

ويتبيَّن من مخطوطات من مدن ساحل البنادر بالصومال أن مجموعاتٍ من قبيلة مخزوم القُرَشِّيين استقرت في مقْدشو وغيرها من مدن ساحل البنادر في صدر الإسلام، بل إن بعض بني مخزوم استقروا في ساحل أفريقيا الشرقي، وكان لهم ولذريتهم مكانة مرموقة في البلاد فقهاءَ وتجاراً. ويرد في (كتاب الزنوج) ذكرُ اثنينُ منهم في القرن التاسع عشر في لاموه وأحوازها على ساحل كينيا الشمالي[7].

إن أقوى دليل على الهجرات العربية من الحجاز إلى القرن الأفريقي في صدر الإسلام هو قيام أسرة حاكمة من بني مخزوم بإقليم شوا بجنوب هضبة الحبشة في أواخر القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي. إن القطعةَ القصيرةَ التي عثر عليها المستشرقُ الإيطالي إنريكو تشيرولي من تاريخ إمارة بني مخزوم بالحبشة تتحدث عن الإمارة المخزومية في المراحل الأخيرة من أيامها، وقد مزَّقتْها الفتنُ الداخلية وأنهكتْها حروبها مع إمارة أوفات الإسلامية المجاورة لها، التي تحالفت ضدها مع ملك أمحرة إيكونو أملاك. يذكر صاحبُ (تاريخ بني مخزوم) في نهاية القطعة التي عُثر عليها بدايةَ الإمارة المخزومية فيقول: «وبلَغَنا أنهم [أمراء بني مخزوم] من أولاد ود بن هشام المخزومي، وكان خرج

---

(6) Freeman - Grenville, G .S .P. The Swahili Coast..., London 1988, II, P.11.

(7) كتاب الزنوج، ص 244، 249.

في زمن عمر بن الخطاب. ومن تولّى من أولاده في شوا ملكَها سنة 283 هـ/ (896 م) إلى سنة 684 هـ (1285 م)، وذلك 390 سنة»[8].

المستوطنات العربية على ساحل شرق أفريقيا:

أهم هذه المستوطنات على الساحل من الشمال إلى الجنوب: كسمايو، لاموه، بتي، ملنده، ممباسة، كلوى، سفالة الذهب؛ فضلاً عن الجزر: الجزيرة الخضراء، زنجبار، مافيا (منفيا)، جزر القمر، مدغشقر.

يتحدث المسعودي عن رحلات العُمانيين، وهم عرب من الأَزد، في بحر الزنج إلى جزيرة قنبلو (لعلّها الجزيرة الخضراء المسماة اليوم بمبا) وإلى بلاد سُفالة، والواق واق (موزمبيق؟) من أقاصي أرض الزنج. ويقطع هذا البحرَ السيرافيون[9]. ويقول ياقوت الحموي إن سيراف مدينةٌ جليلةٌ على ساحل بحر فارس، وبناؤهم بالساج وخشبٍ يُحمل من بلاد الزنج[10].

وبلاد الزنج ـ كما يقول المسعودي ـ غنية بالعنبر، وتُصدَّر منها جلود الفهود البرية، وصدفُ السلاحف لصنع الأمشاط. والفيلة في بلاد الزنج في نهاية الكثرة، وهم يصطادونها لأخذ أنيابها، ويُجهَّز أكثرها إلى عُمان، ومنها إلى الهند والصين. وفي الهند إقبال كبير على شراء العاج حيث تُصنع منه نصبُ (مقابض) الخناجر، وقوائم السيوف، وأدوات الشطرنج والنرد. وأهل الصين يتخذ ملوكُها وقوّادُها الأعمدةَ من العاج. ويُستعمل الغاج في دخن بيوت أصنامها وأبخرة هياكلها، كاستعمال النصارى البخور في الكنائس[11].

زار ابن بَطُّوطة ممباسة وكلوى عام 731 هـ/ 1331 م، وذكر له بعض تجار كلوى أن بين سُفالة ويوفى من بلاد الليميين مسيرةَ شهر. ومن يوفى يؤتى بالتبر إلى سُفالة التي تتبع سلطان كلوى[12].

---

(8) مؤلف مجهول الاسم: قطعة من تاريخ سلطنة بني مخزوم في شوا، نشرها تشيرولّي في (مجلة الدراسات الأثيوبية)، السنة الأولى، العدد الأول، روما 1941، ص 9.

(9) المسعودي، علي: مروج الذهب، الجزء الأول، القاهرة 1964، ص 108.

(10) ياقوت الحموي: معجم البلدان، بيروت 1979، 3/ ص 295.

(11) المسعودي، 2/ ص 6 ـ 7.

(12) ابن بطوطة، محمد: رحلة ابن بطوطة، بيروت 1968، ص 249.

عرض تاريخي لمدن الساحل:

ترد في (كتاب السلوى في تاريخ كلوى) ـ من أوائل القرن السادس عشر ـ قصةُ حسن بن علي وأبنائه الستة. فقد ذُكر بأنه ابن سلطان شيراز من جارية حبشية، وقد نزح عن شيراز في حدود عام 365 هـ/ 975 م مع أبنائه إلى أفريقيا في سبع سفن، وأقام كل واحد منهم مستوطنةً على الساحل حتى جزر القمر. أما الأب فهو مؤسس كلوى[13].

إن حركة الاستيطان العربي على ساحل شرق أفريقيا حركة قديمة ومستمرة على مدى قرون، وكانت تزداد عند قيام الحروب الأهلية والمذهبية في الأوطان الأصلية للمستوطنين، كما حدث بالنسبة للنازحين من إنجلترا (Puritans) إلى أمريكا في القرن السابع عشر.

إن المعلوماتِ التي وصلتنا عن حياة هؤلاء المستوطنين العرب معلوماتٌ ضئيلة. فكتُبُ التاريخ المحلي ما هي إلاّ سرد للسنوات وأسماء الملوك والسلاطين. والأهمُّ منها ما كتبه العربُ من خارج المنطقة ـ كالمسعودي والإدريسي وياقوت الحموي وابن بطوطة. كما تستفاد بعضُ المعلومات مما كتبه البرتغاليون عن هذه المستوطنات عند وصولهم إليها في نهاية القرن الخامس عشر.

وعلى الرّغم من قلّة المصادر، فإنه يمكن إعطاءُ صورة عامة عن تلك المستوطنات العربية. كانت سُفالة في زمن المسعودي «نهايةَ ما وصلت إليه مراكبُ عُمان وسيراف في بحر الزنج»، ولعلَّ ذلك يرجع إلى أن الرياح الموسمية تتوقف جنوبي رأس كورنتيس Correntes، وتكثر العواصف وتزداد التيارات البحرية قوةً، ويزداد المناخُ برودةً.

وأقام العرب تدريجياً مستوطناتٍ، في جزر القمر، وعلى طول الساحل الغربي لجزيرة مدغشقر.

إن معظم هذه المستوطنات أقيمت فوق جزر صغيرة قرب الساحل

---

(13) Coupland. R. **East Africas and Its Invaders**, Oxford V.P. 1956, P. 23.

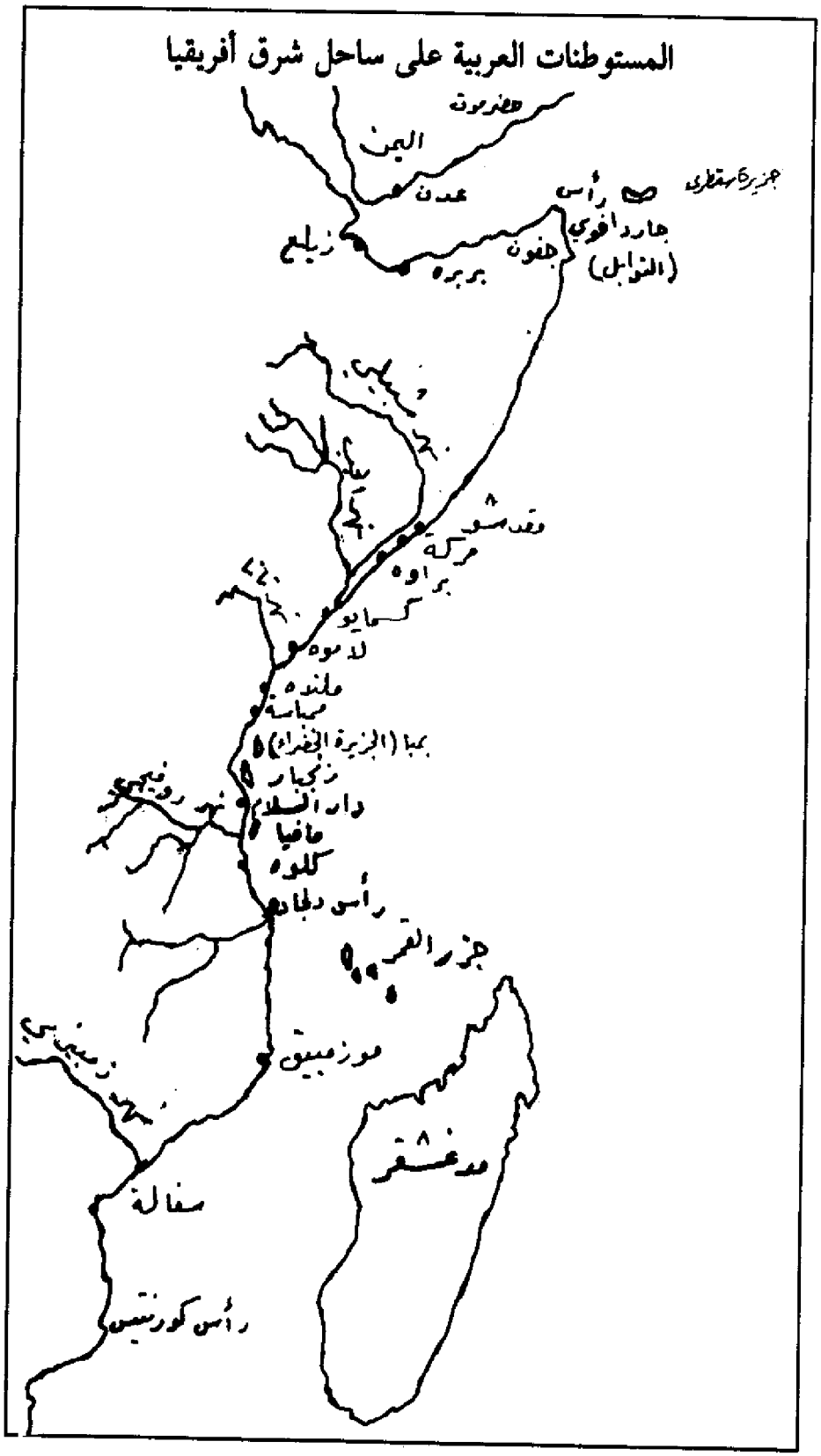
المستوطنات العربية على ساحل شرق أفريقيا
حضرموت
اليمن
عدن
جزيرة سقطرى
رأس
هارد افوي
(النوابل)
جفون
زيلع
بربره
مركه
براوه
كسمايو
لامو
ملنده
مباسه
بمبا (الجزيرة الخضراء)
زنجبار
دار السلام
كلوه
رأس دلجادو
جزر القمر
موزمبيق
مدغشقر
سفالة
رأس كورنتيس

لأغراض دفاعية. وقد ورد في المصادر البرتغالية ما يفيد بأن الشوارع في هذه المستوطنات كانت مستقيمة، وأن المنازل من الحجر، ولها نوافذُ واسعةٌ وشرُفات، وأبوابها من الخشب المفصَّل، وهي مزخرفة ومغطاة بالمعدن، وحولها حدائق واسعة، وتكثر بها المساجد.

وقد احتفظ العربُ في هذه المستوطنات بأنماط حياتهم التقليدية. واستقلّت المستوطنات بعضها عن بعض، واشتدَّ التنافسُ التجاريُّ فيما بينها. كانت السيادة أحياناً لفترة من الزمن لإحدى هذه المدن. فصاحب (تاريخ مدينة بتي) يتحدث عن سيادة بتي في أوائل القرن الرابع عشر على كل الساحل من ملنده إلى كلوى. إلا أن أشهر السيادات وأطولها أمداً يبدو أنه كان لمدينة كلوى التي سيطرت على سُفالة وتجارة الذهب من بداية القرن الثاني عشر، وعلى جزر القمر. ولما وصل البرتغاليون إلى ساحل شرق أفريقيا في نهاية القرن الخامس عشر، كانت كلوى ما تزال المدينةَ المهيمنةَ على الطرف الجنوبي من الساحل.

إن حياة القبائل الأفريقية على الساحل تأثرت تأثراً عميقاً بالمستوطنات العربية، إلا أن هذا التأثر كان تدريجياً وسلمياً، ولا ذكر في الروايات المحلية لفتوح بالعنف. ويبدو أن العلاقات بين المستوطنين العرب والسكان المحليين كانت علاقاتٍ وثيقةً وودية، وحدث التزاوج منذ البداية، وأنتج من ذلك الشعبُ السواحلي. لم يحاول المستوطنون العرب ـ كما فعل المستوطنون الأوروبيون فيما بعد ـ أن يحتلوا أو يستغلُّوا لأنفسهم مساحاتٍ واسعةً من الأراضي، فكل ما كانوا ينشدونه هو مزاولة التجارة، فلم يَسْعَوْا للفتوحات في الداخل[14].

الحضارة السواحلية عربية الأصول:

يمكن تعريفُ الثقافة السواحلية (Swahili) إجمالاً بأنها ثقافة الشعوب الناطقة باللغة السواحلية على ساحل أفريقيا الشرقي بتأثير من أصولها العربية،

(14) نفسه، ص 24 ـ 30.

ولا يمكن القول بأنها «ثقافة قبائل البانتو مع عناصر عربية»، إذ إن الكثيرين من السواحلة تخلّوا في أنماط حياتهم عن كل ما يمكن وصفه بأنه بانتو. قد يكون في عروقهم دم البانتو، إلا أن كل نمط حياتهم عربي إسلامي. إن المستوطنين العرب في الغالب لم يصطحبوا نساءهم بل تزاوجوا من البانتو، وثقافة أبنائهم ثقافة عربية إسلامية، وهم يفتخرون بانتسابهم للعرب.

إن معظمَ القبائل في الساحل تتداول رواياتٍ تفيد بأنها قدمتْ أصلاً من جنوب الجزيرة العربية أو من منطقة الخليج، ولو أن أسماءها «تأفرقتْ» حسب المكان الذي استوطنته، وبعد اندماجها بالسكان المحليين.

ويمكن القول بأن العربَ الحضارمةَ كان لهم أكبرُ الأثر في الثقافة السواحلية، بينما كان للعمانيين أثر جذري في الكيان السياسي في الساحل. وبخلاف العمانيين، فإن الحضارمة تزاوجوا مع سكان البلاد. وقد كان معظم الفقهاء من الحضارمة، كما أن القصائد الأولى باللغة السواحلية نظمها شعراء من حضرموت.

ويهتم عربُ شرق أفريقيا بالدراسات العربية، وباللغة العربية، وبذلك حافظوا على صلة السواحلية باللغة العربية، التي هي أساس اللغة السواحلية(*).

يقول باحث متخصص في التاريخ السواحلي إن اللغة السواحليةَ ستظل ما بقي الإسلامُ في شرق أفريقيا، وسيظل للغة العربية مكانتُها بين المسلمين هناك. وعلى الرغم من أن انتشار السَّواحلية في الداخل، فقد كان الموطن

(*) أخبر الشيخ أبو الحسن علي الأنصاري الأندلسي (من أهل مدينة ميورقة) ـ وكان عالماً باللغة ـ أنه «لما وصل إلى عُمان، وركب البحر إلى بلاد الزنج، وكان معه من العلوم أشياء، فما نَفَق عندهم إلا النحو. وقال: لو أردتُ أن أكسبَ منهم آلافاً لأمكن ذلك، وقد حصل نحو من ألف دينار، وتأسَّفوا على خروجي من عندهم». وكانت وفاته ببغداد سنة 477 هـ (المعافري المالقي، علي: الحدائق الغناء في أخبار النساء، تحقيق عائدة الطبي. الدار العربية للكتاب 1978، ص 3 ـ 114).

الحقيقيُّ للغة والثقافة السواحلية هو الساحل[15].

أخفقت مدن الساحل، الذي يمتد مسافة 4500 كيلومتر، في الاتحاد، مع أنه كان يجمعها الدينُ واللغةُ والاعتمادُ على التجارة. ويمكن مقارنةُ الحضارة السواحلية بِحَبْلٍ ذي عدة جدائل، كل جديلة منفصلة، وكلها جزء من كل. إن حضارة الساحل ليست عربية بالكامل ولا هي أفريقية بحتة، وإنما هي حضارة انتقائية. وجدير بالذكر أن «الحضارة» باللغة السواحلية يعبرُ عنها بكلمة «ustaarabu» أي أن تكون كالعربي.

انتشرت اللغة السواحلية على طول الساحل من مَقْدشو إلى موزمبيق، وفي الجزء المقابلة للساحل، وشمال غربي مدغشقر، وفي جزء القمر. والسواحليةُ اليوم هي اللغة القومية في تنزانيا، وتُفهم على نطاق واسع في كل النصف الشرقي من وسط أفريقيا من شمال كينيا إلى موزمبيق، وغرباً إلى أعالي الكونغو. لقد انتشرت اللغة السواحلية في الداخل بفضل التجارة، وفي القرن العشرين وصلت إلى زئير، وتُدرّس اليوم في كنشاسا قرب ساحل الأطلنطي. ويتكلّم السواحليةَ اليوم أكثرُ من ثلاثين مليون من الأفارقة، وهي عامل من عوامل الوحدة في القارة الأفريقية.

وظهرت في السواحلية آداب ـ قصائد وروايات قصصية ـ وكانت القصائد الأولى على غرار القصائد العربية، وأكثر من نصف مفرداتها من أصل عربي. أما متى اتُّخذت الحروف العربية لكتابة اللغة السواحلية فغير معروف، ولكن ثمة ما يدعو إلى الاعتقاد بأن تدوين اللغة بالحروف العربية بدأ قبل قدوم البرتغاليين في نهاية القرن الخامس عشر. وعند وصولهم كانت العربيةُ الرسميّة في الوثائق، وكانت الثقافةُ العربية الإسلامية هي الثقافة السائدة في مدن الساحل.

ومع أن البرتغاليين أقاموا في ساحل شرق أفريقيا أكثر من قرنين، إلا إن

(15) Harries, L., «The Arabs and Swahili Culture». in **Africa**, vol, 24, PP.
Trimingham, J. S. **Islamin East Africa**, Edinburg House Press 1962, PP. 30 - 31.

أثر اللغة البرتغالية في السواحلية لا يتجاوز 60 كلمة، كأسماء بعض المحاصيل والأشجار ـ كالذرة الصفراء والأفوكادو وقوافة ـ واسم الكارتة واسم بيت الدعارة. «إن وجود البرتغاليين لم يُسهمْ شيئاً في مجالات الفن والبناء والأدب والسياسة. . . فقد مروّا كالحلم».

كانت المباني في البداية من الطين، ومنذ بداية القرن الثاني عشر شُيِّدت مبانٍ من الحجر المرجاني المتوافر على الساحل، وبرعوا في نحته، فأقاموا المساجد والقصور والحصون البديعة في كلوى وزنجبار والجزيرة الخضراء. وملنده ومباسة وبتي وغيرها.

إن مسلمي شرق أفريقيا شافعيةُ المذهبِ، إذ إنّ التأثير الإسلامي السائد وصل من جنوب الجزيرة العربية، وبخاصة حضرموت. وتكثر المساجدُ في مدن الساحل، وللفقهاء منزلة عالية. وتُعقد حلقاتٌ تُعرف الواحدة منها باسم «دراسة» لتعليم اللغة العربية، وتفسير القرآن والفقه، لعامة الناس. وتُعقد هذه الحلقات في المساجد أو في منازل المعلمين، ويحضرها الكثيرون، وتتخلّلها الصلواتُ وإنشاءُ القصائد. وللاحتفال بالمولد النبوي مقام كبير في شرق أفريقيا، فتُقرأُ قصة المولد (maulidi)، وتقام الحفلات في ذكرى المولد النبويّ، وأشهر ما يقرأ قصة المولد للبرزنجي، خطيبِ الحَرم النبوي ومفتي الشافعية الذي توفي بالمدينة المنورة سنة 1177 هـ، وهي تدرَّس في كافة المدارس القرآنية، ولذلك فهناك إقبال من الطلبة على تلاوتها[16].

إن المستوى العاليَ للحضارة السواحلية يبدو كذلك من القناديل الخزفية التي عُثر عليها في الحفريات، ولعلّها كانت تُستعمل لإنارة الحجرات المظلمة، مما يدل على أن السكان مارسوا القراءةَ والكتابةَ وإعدادَ الحسابات[17].

كانت الحضارة السواحلية ثمرةً للنمو التجاري، وكان ذلك في الوقت

---

(16) Trimingham, J. S. **Islam in East Africa**, pp. 47-48.

(17) **General History of Africa** (UNESCO), 1984, P. 472.

ذاته عاملَ ضعف، إذ لم يقُم الرخاءُ على تنمية القوى الإنتاجية في الساحل فكل السلع تقريباً لم تكن للاستهلاك المحلي بل للتصدير. والتجارة وحدها لم تكن أساساً كافياً أو حافزاً للحضارة، فهي عرضةٌ لتبدل المسالك، وتواصل العلاقات التجارية، وهو ما حدث بالفعل بعد مجيء البرتغاليين. لقد وجد البرتغاليون سكان مُدن الساحل في ذروة الرخاء، فطمعوا في الاستحواذ على هذه الثروات. وفي أقل من عشر سنوات، تمَّ للبرتغاليين السيطرةُ على مدن الساحل، واتخذوا من موزمبيق مقراً لإدارتهم. ولم ينجُ من الاحتلال البريطاني سوى مدغشقر وجزر القمر[18]. إن الكلمةَ الدالة على البرتغاليين في السواحلية «عفريتي» afriti.

من هم الشيرازي؟

يقول جيمس كيركمان «إنه لا شك في أن أقوى المؤثرات في شرق أفريقيا في القرون الوسطى جاءت من الخليج، وهو ليس فارسياً، كما أن بحر الشمال ليس بحراً ألمانياً». إن معظم سكان ولاية فارس في القرنين التاسع والعاشر (وبها شيراز وميناؤها سيراف بخوزستان/ عربستان) عربٌ لا فرسٌ، وهم الذين يشار إليهم بالشيرازي في شرق أفريقيا[19].

إن أفضل تفسير للتسمية «شيرازي» هو أنها استُعملت لتربط بين حكام مدن ساحل شرق أفريقيا وبين أمجاد بلاط شيراز العربي ـ الفارسي في عهد البُويْهيين (932 ـ 1055 م).

يبدو أن الشيرازيين القادمين إلى شرق أفريقيا وصلوا من جنوب الجزيرة العربية، كما يبدو أن الشرفاء «الشيرازيين» فروا من وجه الغزو المغولي إلى العراق، ونزلوا عند أقربائهم في مَقْدشو، ثم انتقل بعضهم إلى كلوى وحكموها.

---

(18) نفسه، ص 479 ـ 480.

(19) Dr V. Allen, J. «The Shirazi» Problem in East African Coastal History». in **Prideuma** (28) 1982, Wiesbaden, P. 9.

ارتبط الشيرازيون بكلوى تدريجياً ارتباطاً تجارياً، وعن طريق المصاهرة، وهاجر بعضهم إليها. فجزر القمر قدم إليها بعض كبار القوم من كلوى في أواخر القرن الرابع عشر. كما قدم مهاجرون من الشرفاء من حضرموت واليمن، وشملتهم التسميةُ «شيرازي» في كل هذه الأماكن بشرق أفريقيا.

إن استعمال اللقب «شيرازي» في القرن العشرين في زنجبار والساحل يعني أن صاحبه مواطن من الفترة الأولى التي سبقت وصول العُمانيين في نهاية القرن السابع عشر، وهي الفترة التي كان يحكم مدن الساحل فيها شرفاءُ عُرفوا بالشيرازي. إن انتسابَ حكام المدن الساحلية للشيرازي شبيه بانتساب بعض اللوردات في إنجلترا إلى الأصل النورماني الفرنسي[20].

وصول عرب أندلسيين إلى شرق أفريقيا:

في أواخر القرن السادس عشر وصل إلى مدينة بتي على ساحل كينيا الشمالي فوجٌ من المستوطنين العرب، يُعرفون بالحاتمي، قادمين من مدينة براوة على ساحل الصومال الجنوبي. وقد ذكر هؤلاء المستوطنون الجُدد بأنهم قدموا أصلاً من الأندلس. وقد أسستْ مجموعة منهم مدينة دار السلام، عاصمة تنزانيا اليوم.

جاء في (تاريخ مدينة بتي) أنه في حدود سنة 995 هـ (1587 م)، وصل إلى مدينة بتي غرباءُ من براوة (بالصومال)، وهم عرب، وقبيلتهم حاتمي قبيلة مشهورة في الجزيرة العربية، وكانت الأندلس موطنهم في السابق. إن بعض عرب السواحل ينتمون إلى هؤلاء الأندلسيين. ويضيف (تاريخ مدينة بتي) إن هؤلاء العربَ الأندلسيين جلبوا معهم ثروةً طائلة مكنَتهم من شراء المنازل والبساتين والآبار، فازدهرت بتي كثيراً إلى سنة 1010 هـ (1610 م) حينما بدأت الحروب مع البرتغاليين[21].

---

(20) نفسه، ص 21.

(21) Freeman Grenville, G. S. P., **East African Coast. Select Documents**, London 1975, P. 258.

سلطنة كلوى:

تُعرف باسم كلوى عدة مواضعَ وجزر قربَ ساحل شرق أفريقيا، إلا أن أشهرها كلوى التي تحدَّث عنها الرحالة ابن بطُّوطة عند زيارته لها عام 731 هـ (1331 م)، وتُعرف اليوم باسم كلوى كيسيواني، وهي تقع على جزيرة صغيرة قرب ساحل تنزانيا الجنوبي على بعد 150 ميلاً جنوبي العاصمة دار السلام.

كانت كلوى عاصمةَ سلطنةٍ امتدَّت أراضيها في أواخر القرون الوسطى من نهر روفيجي Rufiji إلى سُفالة على ساحل موزمبيق. وكانت ـ إلى قدوم البرتغاليين ـ أكثرَ المدن التجارية الإسلامية في شرق أفريقيا رخاءً وازدهاراً، لاحتكارها لتجارة الذهب الذي كان يصل إلى سفالة (سُفالة الذهب) من مناجمه في ما يُعرف اليوم بزمبابوي وموزمبيق. ويُستفاد من (كتاب السلوى في تاريخ كلوى) ـ المؤلَّف في أوائل القرن السادس عشر ـ بأن مؤسسي المدينة قدموا من شيراز بمنطقة الخليج في منطقة القرن الثالث الهجري. وكانت كلوى بادىء الأمر محطةً تجاريةً يؤمُّها التجارُ العربُ في منطقة المحيط الهندي للحصول على الذهب والعاج من الداخل، في مقابل بيع الأقمشة القطنية والحريرية، والأواني الخزفية والفخارية، من الشرقين الأدنى والأقصى، ومن الهند[22].

كانت تجارة كلوى مع بلدان الشرق الأقصى بالغةَ الأهمية كما يُستدل من الكميات الوفيرة من الأواني الصينية التي عُثر عليها في كلوى من القرن الخامس عشر. وقد أصبحت كلوى منذ القرن الثالث عشر أكثر المدن التجارية على ساحل شرق أفريقيا رخاءً وازدهاراً. كان القرن الرابع عشر العصرَ الذهبيَّ لمدينة كلوى، فنشطتْ حركةُ البناء، إذ أراد سلاطينها أن تكون مدينتهم صورةً من عدن وجدة، والقاهرة. وما زالت أطلالُ مسجدها الجامع ماثلةً للعيان. كما دلَّت الحفريات على أن قصرَ سلطانها من أوائل القرن الرابع عشر كان

(22) دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الجديدة بالإنجليزية)، المجلد الخامس، ليدن 1979، ص 106.

قصراً رائعاً يذكّر المرءَ بقصور الأمويين والعباسيين قبله بخمسة قرون[23].

وقد زار ابنُ بطُّوطة مدينة كلوى سنة 731 هـ (1331 م) فقال: «وهي مدينة عظيمة ساحلية... وذكر لي بعض التجار أن مدينة سفالة على مسيرة نصف شهر من مدينة كلوى، وأن بين سفالة ويوفى مسيرة شهر، ومن يوفى يؤتى بالتبر إلى سفالة. ومدينة كلوى من أحسن المدن وأتقنها عمارة... وأهلها أهل جهاد، لأنهم في بر واحد متصل مع كفار الزنوج. والغالب عليهم الدين والصلاح، وهم شافعية المذهب»[24].

كان من نتائج انتشار الإسلام في مدن ساحل شرق أفريقيا تشييد المساجد وبناء المنازل من الحجر. والبناء الوحيد الذي ظلّ قائماً إلى اليوم من القرن الثاني عشر هو المسجد الجامع بكلوى، وهو مثالٌ رائع للمعمار السواحلي بشرق أفريقيا.

نَمتْ كلوى في القرن الثاني عشر في عهد أسرة مَهْدَلي، وأصلها من حضرموت وفي عهد هذه الأسرة، وُسِّع المسجدُ الجامع، وأُضيفت إليه أروقةٌ وقباب. وشُيِّد قصر جديد رائع يُعرف بالحصن الكبير في الطرف الشمالي من جزيرة كلوى كان يشتمل على قاعة استقبال كبيرة، وبركة سباحة ثُمانية الأضلاع، ومجموعة من العنابر لخزن السلع. وقد ذكر المؤرخُ البرتغاليُّ بَرْبوسا (أوائل القرن السادس عشر) إن القصر الكبير في كلوى كان من عدة أدوار. والقصر متأثر بأنماط مباني الحصون في جنوب الجزيرة العربية، حيث الحصنُ عبارة عن برج، تُستعمل قاعدته مخزناً للحبوب ولإيواء الدواب، وفي الدَور الأول حجرات لاستقبال الرجال، وفي الدَور الثاني حجرات للنساء. وتصل حصون السلاطين في سَيْوون وشبام بحضرموت إلى اثني عشر طابقاً[25].

---

(23) Fage, J. D, **A History of Africa**, London 1979, P. 125.

(24) رحلة ابن بطوطة، ص 249.

(25) **The Swahili Coast...**, XVI, PP. 228 - 229.

وقد وصف كلوى برتغاليٌ (1505 م) فذكر أن بيوتها من الحجر، وسقوفها مسطحة، وخلفها بساتينٌ كثيرةُ أشجار الفاكهة، وقد «بدت المدينة من سفُننا جميلةً ببيوتها البديعة، ومآذن مساجدها، وبساتينها، مما جعل رجالَنا يتشوَّقون للاستيلاء عليها»[26]. وهذا ما حدث بالفعل، إذا استولى البرتغاليون على كلوى عَنْوةً عام 1505 م، وعاثوا بها، ونهبوا ثرواتها، وفتكوا بسكانها الآمنين .

وذكر ألماني (هانس ماير) كان يرافق الحملة بأن بكلوى العديد من المساجد ذوات الأروقة والقباب، ويشبه أحدُها جامع قرطبة. والواقع أنه مع أن المسجد الجامع بكلوى أصغر حجماً من المسجد الجامع بقرطبة، ويفتقر إلى الفسيفساء، ومع أنه مهدَّم جزئياً، فإن غابةَ أعمدته تدعم وجهَ مقارنته بجامع قرطبة[27].

ووصف كلوى المؤرخُ البرتغاليُ المعروف دوارتي بَرْبوسا (1518 م) بأنها «مدينة إسلامية بها بيوت بديعةٌ كبيرةٌ من الحجر، وبها عدة نوافذ كبيوتنا. وشوارعها حسنة، وسقوف بيوتها مسطحة، وأبوابها حسنة الصنع من الخشب المحفور.. ويرتدي سكانها ثياباً حسنة من القطن والحرير المقصَّب، ولغتهم العربية، وهم مسلمون وَرِعون». ويضيف بربوسا بأن البرتغاليين استولَوْا على المدينة عَنْوةً بعد أن أبى سلطانُها الخضوعَ لملك البرتغال وأداء ضريبة سنوية له[28].

ووصف كلوى طبيبٌ جراحٌ إنجليزي (جيمس بريور) زارها عام 1811 م بأنها كانت في الماضي مدينةً بالغة الأهمية، وحاضرة مملكة مترامية الأطراف، فخربها البرتغاليون ونهبوها. ويضيف معقِّباً على ذلك بأن «مجرَّدَ لمس البرتغاليين لمكان يعني هلاكَه»[29].

---

(26) East African Coast, PP. 85 - 86.

(27) نفسه، ص 108.

(28) نفسه، ص 131.

(29) نفسه، ص 203.

عُملات كلوى وانتشارها:

ضرب أولُ ملوك الفترة الشيرازية ـ علي بن الحسن ـ عُملةً لأول مرة في كلوى، وكانت من النحاس، وفيها يرد اسمُ الملك الذي ضربها دون ذكر تاريخ الضرب. وتتميَّز الكتابةُ عليها بطابع فريد، فهي تلتزم السجع، ففي أول عُملة ضُربت في كلوى نجد على الوجه:

علي بن الحسن، وعلى الظهر:

يثق بمولى المِنن[30].

وقد تم العثورُ على لقيةٍ من نقود كلوى في جزيرة صغيرة قرب ساحل أستراليا الشمالية، وعددها خمس قطع نقدية، من ضرب سلاطين حكموا كلوى في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وهي لا تحمل سنوات الضرب. ولم يُعثر قبل ذلك على نقود من ضرب كلوى خارج مدن ساحل أفريقيا باستثناء قطعة نحاسية واحدة عُثر عليها في أطلال موقع في ظَفار بسلطنة عُمان تعود إلى القرن الرابع عشر»[31]. ولا يُستبعد أن تكون قطع النقود الخمس قد حملها تجارٌ عربٌ من حضرموت في القرن الخامس عشر، إذ نشطت تجارتهم آنذاك مع كلوى ومدن ساحل أفريقيا ومع مدن ساحل مُلَيْبار بغرب الهند وملاقة بشبه جزيرة الملايو، وكانت لهم فيها وفي جزيرة سومطرة جاليات مقيمة ونشاط تجاري واسع، ولعلَّهم وصلوا إلى أطراف القارة الأسترالية قبل نهاية القرن الخامس عشر، أي قبل وصول الهولنديين بأكثر من قرن.

جزيرتا زنجبار وبمبا (الجزيرة الخضراء):

الاسم القديم لجزيرة زنجبار أُنجوجا (Unguja)، ولكن العربَ سمّوا الساحلَ المقابلَ زنج ـ بار، أي ساحل الزنج، ثم لما كانت الجزيرةُ في مقدمة الأماكن التي قصدوها سمّوها «زنجبار».

---

(30) The Swahili Coast, VII, P. 75.

(31) نفسه، 4/ ص 1 ـ 6.

يذكر المسعودي جزيرةَ قنبلو (ولعلّها الجزيرةُ الخضراء إلى الشمال من زنجبار، ولو أن كيركمان يرى أنها إحدى جزر القمر) ويقول إن سكانها مزيج من العرب والسكان الأصليين تحت حكم أسرة مسلمة[32].

كانت زنجبار والجزيرة الخضراء من أقدم المستوطنات العربية. إن أقدم كتابة عربية معروفة في شرق أفريقيا تلك التي في كيزيماكي بجنوب زنجبار، وهي عبارة عن نقش على جدار يقول إن الشيخ السيد أبا عمران أمر ببناء مسجد في اليوم الأول من شهر ذي القعدة عام 500 هـ (27/ 7/ 1107 م)[33].

ومما يدل على الرخاء الذي كانت تنعم به زنجبار قبيْل وصول البرتغاليين إليها عام 1503 م الوصفُ الذي كتبه المؤرخُ البرتغاليّ بربوسا، فهو يقول: «سكان زنجبار وملوكها مسلمون... وهم يعيشون في بذخ ونعيم، ويرتدون الملابسَ الرقيقةَ من الحرير والقطن، ونساؤهم يَسِرْن بالجواهر الكثيرة من ذهب سُفالة الجيد، وملابسهنَّ من الحرير الفاخر. وفي الجزيرة مساجد كثيرة، والسكان متمسكون بالدين»[34].

مدغشقر:

عُرفت جزيرةُ مدغشقر منذ زمن بعيد في المصنَّفات العربية. يقول ياقوت الحموي إن «القُمْرَ جزيرةٌ في وسط بحر الزنج، وليس في ذلك البحر جزيرة أكبر منها. يوجد في سواحلها العنبرُ وورقُ القُماري. وهو طِيبٌ يسمُّونه ورقَ التانبل»[35].

ويقول ابن سعيد: جزيرة القُمْر (مدغشقر) الطويلة العريضة التي يقال إن طولَها أربعةُ أشهر، وعرضَ الواسع منها نيْفٌ وعشرون يوماً. وقد ذكر ابنُ فاطمة أنه دخلها، وأنها للمسلمين كمقَدْشو. والبحر الذي يمرُّ مع طولها

---

(32) مروج الذهب، 1/ ص 107.

(33) **The Swahili Coast**, XV, P. 121.

(34) **East Africa Coast**, P. 133.

(35) ياقوت الحموي، 4/ ص 397.

الجنوبي يختلط من الجنوب بالبحر المحيط، وأهلها مجتمعون من الأقطار، وصورهم أقرب إلى أهل الصين منهم إلى أهل الهند، وكذلك ملابسهم. وعبادتهم الأجداد (البوذيّة) كأهل الهند والصين[36].

بعد إقامة المستوطنات العربية على طول ساحل أفريقيا الشرقي، بدأتْ جماعات من هؤلاء المستوطنين تقوم بزيارات منتظمة إلى جزيرة مدغشقر وجزر القمر، كما تدعمَّت التجارة بين جانبيْ قنال موزمبيق بعد أن أُقيمت مستوطنات عربية في أطراف مدغشقر وفي جزر القمر.

وتتحدث الرواياتُ المتداولةُ في جزر القمر ومدغشقر عن أجدادٍ من أصل عربي قدموا بعد أن اضطرُوا إلى مغادرة موطنهم الأصلي بسبب معتقداتهم الدينية، وكان ذلك ـ حسب إحدى الروايات ـ في القرن الخامس عشر. ومع أن هذه الروايات تؤكد على الدوافع الدينية للهجرات، فإن جاذبية مدغشقر وجزر القمر كانت قوية لأسباب تجارية.

وفي ضوء الاكتشافات الأخيرة يمكن القول بأنه ما بين سنتيْ 700 و 1000 م، قامتْ في شمال مدغشقر وجزر القمر حضارةٌ على أيدي مستوطنين أندونيسيين وأفارقة. ثم قَدِم مهاجرون من العرب من الخليج وحضرموت ونشطوا في التجارة، وهم الذين علَّموا سكانَ الساحل الملاحة، مما مكن البانتو من العبور من البر إلى الجزر.

وبعد القرن العاشر الميلادي أقام العربُ صلاتٍ تجاريةً بين سيراف وصُحار بعمان من جهة وبين موانىء مدغشقر وجزر القمر. ثم ازداد عددُ المستوطنات العربية بين القرنين الثاني عشر والرابع عشر، وشُيِّدت المساجد من الحجارة، وكذلك المنازل والحصون[37].

كان القرنان الرابع عشر والخامس عشر العصرَ الذهبيَّ للمستوطنات الإسلامية في مدغشقر. وبالشمال الشرقي من مدغشقر موقع في فوهيمار

---

(36) ابن سعيد المغربي، علي: كتاب الجغرافيا، بيروت 1970، ص 84.

(37) General History of Africa, Vol. 4, P. 604.

Vohemar تبيَّن من الحفريات أنه كان مستوطنةً إسلاميةً نشطة ككلوى.

وعلى الرّغم من تعصُّب البرتغاليين، فإنهم تركوا أوصافاً هامة عن الحياة في موانىء شمال غربي مدغشقر في أوائل القرن السادس عشر. فقد وُصِفَتْ إحدى المستوطنات كالتالي: سكانها مسلمون، وهم أغنى وأكثراً تحضُّراً من السكان في المراكز الأخرى على الساحل، ومساجدهم ومنازلهم مبنية من الحجر، ولها شرُفات كالمنازل في كلوى وممباسة[38]. وفي أواخر القرن الخامس عشر، أغار البرتغاليون على سواحل مدغشقر، ونهبوا بعض مدنها، ولكن المدن الإسلامية في الجزيرة لم تخضع للتاج البريطاني.

إن معظمَ الباحثين اليوم متفقون على ضرورة الكشف عن الدور المهم الذي قام به العربُ في حياة مدغشقر السياسية والاجتماعية.

وقد انتقلتْ بعض المفردات العربية إلى اللغة الملقاشية عن طريق اللغة السواحلية، منها Sokany (أي سكّان السفينة)، وبعضُ المفردت التجارية مثل mizana (ميزان)، وأسماءُ أيام الأسبوع، وأسماء الشهور التي تحمل أسماء البروج (الحمَل، الثور، الجوزاء، السرطان، الأسد...)[39].

جزر القمر:

جزر القمر أربعُ جزرٍ صخرية بركانية تقع عند المنفذ الشمالي لقنال موزمبيق، في منتصف المسافة بين ساحل شرق أفريقيا وشمال مدغشقر. وسكانها مزيج من العرب والبانتو، ومن عناصرَ من أصل أندونيسي ـ ماليزي، وكلهم مسلمون. أما العرب فقد قدموا إما مباشرةً من جنوب الجزيرة العربية ـ وبخاصة حضرموت ـ وإما من المستوطنات العربية بشرق أفريقيا[40].

ويبدو أن اللغةَ العربيةَ كانت ما تزال لغة الكتابة في القرن الماضي، أما اليوم فإن معظم المكاتبات والتواريخ تكتب باللغة المحلية بحروف عربية. وقد

---

(38) نفسه، ص 607، 611.

(39) دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الجديدة، بالإنجليزية)، ليدن 1984، ص 2 ـ 943.

(40) نفسه، ص 379 ـ 380.

ابتعدت لغة جزر القمر كثيراً عن السواحلية، ولا يَعُدُّ أهلُ الجزر لغتَهم لهجةً سواحلية.

من المؤكد أن تجاراً عرباً أو من عرب السواحل كانوا في الألف الأول للميلاد على اتصال بجزر القمر، ولعلَّ بعضهم استقر فيها، وبدأ انتشارُ الإسلام.

إن التحوُّلَ الحاسمَ في تاريخ جزر القمر حدث بوصول «الشيرازي» في النصف الثاني من القرن الخامس عشر أو بداية القرن السادس عشر، فاستَولوا على السلطة في الجزر الأربع وأصبحوا المؤسِّسين الحقيقيين للثقافة الإسلامية في الجزر. ويبدو أن الشيرازي الذين حكموا جزر القمر من الشرفاء، وقد قدموا من اليمن وحضرموت[41].

ينتسب كلُّ شرفاء اليمن وحضرموت إلى أحمد/ محمد بن عيسى «المهاجر»، وقد هاجر من البصرة مع بقية الشرفاء سنة 318 هـ/ 930 م وقصد اليمن ثم حضرموت. ومن جنوب الجزيرة نزحتْ ذريةُ أحمد بن عيسى إلى شرق أفريقيا عن طريق مَقْدشو في وقتٍ تحوَّلت فيه تجارةُ الخليج، أيام الفاطميين، إلى البحر الأحمر[42].

وقد عُثر في دموني بجزيرة أنجوان (إحدى جزر القمر) على نقش على دعامة خشبية إحياءً لذكرى ترميم المسجد على يد السلطان أحمد بن صالح من آل أبي بكر بن سالم[43]، دون ذكر تاريخ، ولعله يعود إلى حوالي سنة 1163 هـ/ 1750 م، وهذا نصُّه:

1 ـ بسم الله الرحمن الرحيم. اللهمَّ صلِّ على محمد وآله

---

(41) Shepherd,K., «The Making of The Swahili». in Pridemma, 142.

(42) المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(43) الشيخ أبو بكر بن سالم أكبر أولياء حضرموت، وهو ينتسب إلى علي بن أبي طالب، وكانت وفاته سنة 992 هـ/ 1584 م بعد ثمانية شهور من وصول الفقيه المغربي يوسف بن عابد الإدريسي الحسني للاجتماع به ـ انظر كتاب (ملتقط الرحلة من المغرب إلى حضرموت) ليوسف بن عاد، تحقيق أمين توفيق الطيبي، الدار البيضاء 1988، ص 116 ـ 120.

2 ـ وصحبه وسلّم

3 ـ انكسر وعمّرها وجدّدها السلطان أحمد بن صالح [بن أحمد بن]

4 ـ السيد حبيب حسين ابن القطب مولانا الشيخ

5 ـ أبو بكر بن سالم غفر لمن عمّر هذه المسجد المباركة

6 ـ ومن صلّى فيها وأقامها ومن أخدمها بالأدوات[44].

(44) Swahili Coast, XV, P. 122.